البحث الأول

الشفاعة في الإسلام والفداء في النصرانية

بسم الله الرحمن الرحيم:

الحمد لله رب العالمين، الذي أذن لصفوة خلقه من الأنبياء والمرسلين بالشفاعة للعصاة والمذنبين، والوساطة للخطاة الآثمين، في إقلاعهم عن الذنوب والآثام، وتركهم للمعاصي والأجرام، وإبعادهم عن الخطيئات والسيئات، وتبديلها بالأعمال الصالحة والمبرات، والاستعاضة عنها بفعل الخيرات والحسنات لينالوا بذلك أعلى المراتب والدرجات ويستحقوا بها جزيل الثواب في فسيح الجنات، والصلاة والسلام على صاحب الشفاعة العظمى، والوساطة الكبرى، والوسيلة الحسنى، والمقام الأسمى محمد خاتم الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين إلى يوم البعث والجزاء والدين.

السبب الذي دعاني

للبحث في موضوع الشفاعة

كنت ذات ليلة من ليالي رمضان سنة ١٣٤٩ هـ في مجلس بديوان حضرة الوجيه السيد إبراهيم العلمي الغزي، إذ قرأ بعض حفاظ القرآن الشريف عشرا متضمنا لبعض آيات الشفاعة فسألني إذ ذاك حضرة الدكتور السيد توفيق حتحت الغزي عن معنى الشفاعة وكيفيتها وما المراد منها فقلت له: هل تريد أن أجيبك على ذلك حسب المعنى المشهور بين الناس أم حسب ما أرى وأفهم في معنى آيات الشفاعة، فقال بل حسب ما ترى أنت وتفهم لأن الفكرة المشهورة معلومة للجميع، فبينت له مجمل ما ستراه مفصلا في هذا البحث، فعندها قبل هذه الفكرة جماعة من الحاضرين وأنكرها آخرون وسكت الباقون.

وإذا بالناس فيما بعد يتحدثون في المجالس بأنني أنكرت شفاعة الأنبياء وجحدت الشفاعة العظمى لخير الأصفياء، ثم أخذ العلماء بعد ذلك يدرسون في مساجد غزة في هذا الموضوع ردا علي وتنديدا بي، وإنكارا لما قلت، مع أنهم لم يسمعوا ذلك مني مباشرة وإنما بلغهم ممن ينقلون الكلام بلا فهم ولا تدبر، ويروون الحديث بلا تحقق ولا تثبت. وأنا وإن كنت قد سامحت هؤلاء فيما قالوه عني ونسبوه إلي من غير علم ولا هدى إلا أنني رأيت من الواجب إزالة لما ألصقوه بي وبيانا لحقيقة ما قلته أن أضع هذا البحث لتفصيل هذا الموضوع وتحقيقه.

وقبل الشروع فيه أرجو ممن يري أن يطلع عليه أن يتفكر ويتمعن جيدا في معنى الآيات التي سأوردها وفي تطبيق هذه الفكرة عليها، فإن وجدني مصيبا فيها فهذا ما ألهمني الله إياه، وإن وجدني مخطئا فلست أول من أخطأ وإني أستغفر الله.

الشفاعة بالمعنى المشهور بين الناس

أمر لا يليق بالله تعالى ولا بأحد من رسله

إن الشفاعة بمعنى توسط أحد الأنبياء أو الخواص يوم القيامة بين الله تعالى وبين المذنب العاصي المشفوع له في إسقاط ذنبه وعدم مؤاخذته على جرمه كما هو المشهور بين الناس أمر لا يليق بالله تعالى ولا بأحد من رسله العظام عليهم الصلاة والسلام. أما كونه لا يليق بالله تعالى فلأن الشفاعة بهذا المعنى تشعر:

(أولا) بأن الشفيع قد يكون أعلم بحال المشفوع له من المشفوع عنده وهو الله تعالى فينبؤه الشفيع بما خفي عنه من حاله ويبين له وجه استحقاقه لغفران ذنبه وإسقاط جرمه عنه وعدم مؤاخذته عليه.

(ثانيا) لأنها تشعر بأن الشفيع قد يكون أرحم بالمشفوع له من المشفوع عنده وهو الله تعالى أو هو أوسع صدرا منه وأشفق وأرأف عليه ولذلك توسط له عنده في غفران ذنبه ومسامحته فيه.

(ثالثا) لأنها تشعر بأن الشفيع قد يثني الله تعالى عن عزمه ويحوله عن إرادته فيما يتعقل بحال المشفوع له كما يحصل مثل ذلك في شفاعة الشفعاء عند الملوك والحكام من البشر فيعدلون بهم عن إرادتهم ويحولونهم عن عزمهم فيتحولون إما لرغبة في مودة الشفيع أو المشفوع له أو لرهبة من أحدهما أو لاحتياجه للاستعانة بأحدهما في بعض الأمور أو لمحاباة أو لحياء أو لاقتناع من كلام الشفيع أ، لتأثر من رجائه واستعطافه إلى غير ذلك من الأسباب الكثيرة التي تؤدي إلى قبول شفاعة الشفعاء مما لا يليق واحد منها بالله جل وعلا.

ولا يصح أن يقال أن ذلك كله منفي هنا في هذا المقام بالنسبة إلى الله تعالى لأنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه فهو يأذن أولا في الشفاعة للشفيع فيشفع وحينئذ فلا يتصور شيء مما ذكر. لأننا نقول إذا فسرنا الشفاعة بالمعنى المشهور بين الناس لا يكون معنى إذنه تعالى في ذلك إلا كمن يقول للشفيع إنني أريد أن أغفر ليزيد ذنبه وأسامحه في خطيئته ولكنني لا أريد أن أفعل ذلك ابتداء من نفسي، بل برجاء واستعطاف منك فتعال أنت وتشفع له عندي أماما لناس لعلموا أو ليظنوا أن مسامحتي له وغفران ذنبه إنما كان بواسطتك وبرجاءك وبشفاعتك.ولا يخفى ما في ذلك مما لا يليق بالله تعالى من الإيهام والتلبس والمداجاه والتصنع التي لا يحتاج الله تعالى إليها مع عبيده وخلقه ولا يليق حصولها منه مع أنبياءه وسله، فإذا كان الله تعالى يريد أن يغفر ذنب أحد ويسامحه فيه،فما الذي يدعوه إلى هذا التصنع وترك الصراحة وسلوك هذه الطريقة التي لا يسلكها إلا خائف أو مخادع أو متصنع في أموره، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا فهو سبحانه إذا أراد أ، يغفر لأحد ذنبه فإنما يغفره بمجرد إرادته ومحض مشيئته بدون توسط أحد ما ولا شفاعته. قال تعالى في سورة المائدة "يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصر".

وأما كون هذه الشفاعة بهذا المعنى لا تليق بأحد من الأنبياء والمرسلين بل ولا بأحد منا الأولياء أو العلماء أو الشهداء أو الصديقين أو الصالحين فضلا عن أعقل الخلق وأفضلهم أجمعين،فلأن الشفاعة بمعنى توسط واجد من هؤلاء في إسقاط الذنب عن المذنب وعدم مؤاخذة المجرم العاصي لله تعالى المخالف لأوامره ونواهيه هي جراءة منهم على الله تعالى وتدخل في شؤونه وشؤون خلقه التي هو أعلم وأولى بها منهم ومحاولة له في عدم إجراء العادلة بين الناس وعدم معاقبة من يستحق العقاب منهم وتسبب في المحاباة أو تصنع أمام الناس أو إيهام ومداجاة لهم مما لا يليق شيء من ذلك بأحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. إذ من المعلوم أنه لو توسط أحد من الناس وشفع لدى الحاكم القضائي في إسقاط الجزاء عن المجرم لعددنا ذلك نقيصة في حق الشفيع لأنه يحاول بذلك تحويل العدالة عن مجراها الطبيعي، ولا تهمنا هذا الشفيع بغرض شخصي أو منفعة ذاتية أو بتصنع لا يليق، ولا تهمنا الحاكم أيضا إذا أطاعة في شفاعته بمثل ذلك أيضا، أو اتهمناه بالمحاباة التي هي أنقص خلة وأشنع خصلة وأقبح صفة للحكام. فإذا كان هذا العمل لا يليق بأحط الناس مع أحط الحكام فكيف يليق بالأنبياء مع الله تعالى وهم أعلم الناس بعظمته وأشدهم مخافة منه.

الشفاعة بالمعنى المشهور تنافي العدالة

وتجرؤ الناس على فعل الذنوب وتشبه الفداء عند النصارى

إن الشفاعة بمعنى التوسط في إسقاط الذنب عن المذنب وعدم مؤاخذة المجرم هي ضد العدل وتحويل له عن مجراه الطبيعي. لأنه لا يخلو الحال إما أن تكون هذه الشفاعة لمذنب دون مذنب وهذا هو عين المحاباة والظلم وأما أن تكون لجميع المذنبين وهذا هدم لجميع الشرائع الإلهية وعدم اعتبار لإنذارها ووعيدها، وعدم اكتراث بجرها وتهديدها واستغناء عن وعظها وإرشادها بل عدم تمييز بين المطيع والعاصي إذ أنه لا فرق حينئذ بينهما في عدم عقابهما وفي دخولهما الجنة. إلا بأن المطيع قد وصل إلى ذلك بطاعته وعمله الطيب، والعاصي قد وصل إليه بشفاعة الشافعين، ولا يخفى ما يترتب على هذا الاعتقاد من التهاون بالأعمال الطيبة الصالحة والتجاسر على الأعمال القبيحة السيئة مما يفسد نظام العالم ويعرقل رقي وسعادة الأمم.

على أن ذلك مناقض تمام المناقضة لكثير من الآيات القرآنية كقوله تعالى" فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره" وقوله تعالى (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الواردة في هذا الشأن والصريحة في أن كل إنسان لا بد وأن يجازى على عمله من خير أو شر مهما كان قليلا جدا، وهذا هو عين الإنصاف والعدالة وضده هو الظلم والمحاباة.

وإنني أرى أن الشفاعة بالمعنى المشهور بين المسلمين هو أشبه شيء بالفداء عند النصارى في اعتقاد أن كلا منها يسقط الخطايا عن المخطئين بعد فعلها ويزيل الذنوب عن المذنبين بعد ارتكابها، ولا شك أن هذا الاعتقاد يجسر على الذنوب ويجرئ على ارتكاب المعاصي مع أنكلا من الفداء والشفاعة له معنى آخر حسن صحيح غير ما فهمه الجمهور فيما مما لا يترتب عليه شيء من ذلك.وبيان ذلك : أن الفداء الوارد في الإنجيل ليس معناه إلا أن عيسى عليه السلام قد تحمل أنواع المشقات والمتاعب حتى الموت في سبيل هداية أمته وإرشادهم وإخراجهم من الكفر إلى الإيمان وإبعادهم عن الذنوب والمعاصي والآثام، فهو قد فداهم من ذلك بنفسه وقدمهم على شخصه شأن كل نبي مع أمته، فإن كل واجد منهم كان يجاهد أقصى المجاهدة في تنفيذ الغرض الذي أتى إليه، وهو هداية الناس إلى الله تعالى ولو بموته في هذا السبيل،أو تحريقه كإبراهيم، أو قطع رأسه كيحيى، وإلى غير ذلك من أنواع البلايا والمصائب الكبيرة، والمشقات والمتاعب الكثيرة التي تحملها الأنبياء في سبيل هداية أممهم وإسعادهم، وحينئذ فليس معنى كون عيسى عليه السلام فدى أمته أنه أسقط عنهم عقاب آثامهم، وأزاح عنهم تبعة ذنوبهم وإجرامهم بحيث لا يعاقبون عليها بعد فعله، لا يجازون عليها بعد ارتكابها كما يفهم النصارى حيث يقولون في أناجيلهم (إن دم المسيح على الصليب هو كفارة لجميع من آمن بصلبه) بل يقول يوحنا في الإصحاح الثاني من رسالته الأولى (وإن أخطأ أحد منا فلنا شفيع عند الأب يسوع المسيح البار هو كفارة لخطايانا، ليس لخطايانا فقط بل لخطايا كل العالم أيضا) فهذه الكفارة وهذه الشفاعة ليس معناهما كما يفهمها النصارى في أنها تسقط ذنوبهم بعد فعلها. كما أن الشفاعة في الإسلام ليس معناها كما يفهمه المسلمون من أ،ها سوف تسقط عنهم ذنوبهم يوم القيامة بحيث لا يعاقبون أيضا عليها في ذلك اليوم. إن هذا مما لا يسوغه العقل ولا تقبله الشرائع خصوصا الفداء بالمعنى الذي يقوله المسيحيون م أن غفران الخطايا إنما يكون عن طريق الاعتقاد بصلب المسيح.

وقد رأيت في كتاب (الحياة بعد الموت أو على حافة العالم الأثيري) في علم استحضار الأرواح للمستر (فندلاي) المسيحي ما نصه: إنني استحضرت مرة روح قسيس مات من نحو قرن فقال لي أنني لم أخط خطوة في سبيل التقدم في عالم الأرواح الأثيري إلا بعد أن وصل إلي من عالم المادة آخر شخص كان قصد حضر مجتمعاتي ومواعظي في الكنيسة، فقلت له: لماذا فأجابني : لأنه كان يدعو إلى تعاليم المسيحيين ويعظ الناس بأن غفران الخطايا إنما يكون عن طريق الاعتقاد بصلب المسيح، وأن العقاب واقع لا محالة بكل من لا يعتقد هذا الاعتقاد، فكنت أنتظر كل واحد يفد علي في العالم الأثيري ممن حضروا مواعظي في الكنيسة لأقول له أنني كنت مخطئا في ذلك، وأنني كنت أعطيكم فكرة خاطئة عن الحياة الآتية بعد الموت.

وهذا ونحوه مما يدل على أن الفداء بهذا المعنى إنما هو خطأ في الفهم وإن كان صحيحا من حيث الأصل وسأبين فيما سيأتي ما هو المراد من الفداء في النصرانية ومن الشفاعة في الإسلام حسب ما يفيد الإنجيل والقرآن، وأنهما بالمعنى الذي يعتقده الناس لا دليل عليه من الكتب المقدسة بل بالعكس إنما تدل على عدم صحته.

الآيات القرآنية الصريحة

في أن الشفاعة يوم القيامة ولو كانت من بني لا تقبل

ولا تنفع ولا تطاع ولا يملكها أحد تغني عن الله شيئا يوم القيامة

إن الشفاعة بمعنى توسط أحد من الخلق مهما كان عظيما بين الحاكم المطلق وهو الله تعالى وبين أحد العصاة المذنبين في إسقاط ذنبه وغفرانه يوم القيامة أمر غير مقبول وغير نافع ولا مطاع ولا يعني عند الله شيئا في ذلك اليوم بمقتضى صريح آيات كثيرة من القرآن الحكيم.

•الآية الأولى : قوله تعالى في سورة البقرة ٤٨ " واتقوا يوم لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون". فإن هذه الآية صريحة في نفي الشفاعة مطلقا، وعدم قبولها يوم القيامة من ثلاث وجوه:

١. من وجهة قوله " لا تجزي نفس عن نفس شيئا" فإنها تقيد أن مطلق نفس ولو كانت نفس نبي لا تجزى عن مطلق نفس أخرى شيئا يوم القيام، فلو كانت هناك شفاعة لأجزت نفس عن نفس وهذا ضد الآية.

٢. من وجهة قوله " ولا يقبل منها شفاعة" فإنها نكرة في سياق النفي فتعم كل شفاعة من أي شخص أي لا تقبل يوم القيامة شفاعة أحد ولو كان نبيا مرسلا.

٣. من جهة قوله " ولا هم ينصرون" فلو كان أحد الأنبياء شفيعا لأحد العصاة يوم القيامة، لكان هؤلاء العصاة منصورين من طرف هؤلاء الأنبياء وهو خلاف الآية ولكان الأنبياء ناصرين لمن يعصي الله تعالى وهذا ما لا يليق بهم.

•الآية الثانية: قوله تعالى في سورة البقرة ١٢٣ أيضا " واتقوا يوم لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة" فإن هذه الآية صريحة فيما تقدم بيانه في الآية الأولى وصريحة أيضا في أن أي نفس لا تنفعها يوم القيامة شفاعة أي نفس أخرى ولو كانت نفس نبي.

•الآية الثالثة: قوله تعالى في سورة المدثر ٤٨ " فما تنفعهم شفاعة الشافعين" أي في يوم سقر كما هو صريح الآية قبلها. وضمير " فما تنفعهم" راجع للمجرمين في الآية قبلها وهي صريحة في أن المجرم العاصي لا تنفعه يوم القيامة شفاعة أحد ما ولو كان نبيا مرسلا.

•الآية الرابعة: قوله تعالى في سورة المؤمنون ١٨ " وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور" فإن هذه الآية تفيد أنه في يوم الآزفة لا يوجد للظالمين أو المجرمين العاصين حميم ولا شفيع مطاع مطلقا، ولو كان رسولا لأنه تعالى يعمل من حال المشفوع له ما لا يعلمه احد غيره مما تخونه الأعين وتخفيه الصدور.

•الآية الخامسة: قوله تعالى في سورة يس ٢٣ " إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئا ولا هم ينقذون" فإنها صريحة في أن الله تعالى إذا أراد أحدا بضر لا تغني عنه شفاعة الشافعين شيئا ولا ينقذونه مطلقا من هذا الضر ولا يثنون الله عن عزمه ولا يحولونه عن إرادته في ذلك أصلا.

•الآية السادسة: قوله تعالى في سورة الانفطار ١٩ " وما أدراك ما يوم الدين، يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله" فإن هذه الآية صريحة في أن مطلق نفس لا تملك يوم القيامة لمطلق نفس أخرى شيئا لا شفاعة ولا غيرها، بل الأمر كله والشفاعة كلها يومئذ لله وحده بلا توسط أحد ما بل بمجرد إرادته ومحض مشيئته. قال تعالى في سورة الفتح "ولله ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء"

الآيات القرآنية الصريحة

في أن الشفاعة مطلقا لا وجود لها يوم القيامة أصلا

•الآية الأولى: قوله تعالى في سورة البقرة ٢٥٤ " من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة" فهذه الآية أصرح من الصريح في نفي الشفاعة من أي أحد ما مطلقا يوم القيامة، لأن لفظ الشفاعة نكرة في سياق النفي فتكون عامة عموما كليا.

•الآية الثانية: قوله تعالى في سورة الأنعام " وأنذر به الذين يخافون أن يحضروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون" أن هذه الآية واردة في حق الكافر وفي حق المذنب أيضا بدليل قوله " لعلهم يتقون" وهي تفيد أنه لا يوجد يوم الحشر شفيع ما من دون الله في أي جرم ما مطلقا، لأن لفظ (شفيع) نكرة في سياق النفي فيكون عاما كما سبق.

•الآية الثالثة: قوله تعالى في سورة الأنعام ٥١ أيضا " وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع" فإنها صريحة في أن النفس تبسل أي ترهن وتعاقب يوم القيامة بما كسبت من الذنوب وأنه ليس لها من دون الله شفيع في ذنبها مطلقا.

•الآية الرابعة: قوله تعالى في سورة الأعراف ٥٢ "فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل" فإنها تتضمن معنى التحسر على عدم إمكانية وجود شفعاء لهم يوم القيامة على ذنوبهم وعلى عدم إمكان رجوعهم إلى الدنيا ليعملوا أعملا حسنة غير التي كانوا قد عملوها من الأعمال السيئة. فهذه الآية تفيد عدم وجود شفعاء يوم القيامة.

•الآية الخامسة: قوله تعالى في سورة الشعراء ١٠٠ " وما أضلنا إلا المجرمون فما لنا من شافعين ولا صديق حميم" أي في يوم أن تبرز الجحيم للعاوين ويختصمون فيها كما في الآية قبلها. فهذه الآية دالة على عدم وجود شفيع مطلقا يوم القيامة وعلى عدم وجود شفيع مطلقا يوم القيامة وعلى عدم وجود صديق حميم فيه يشفع للإنسان في معاصيه إذ الإنسان إنما يجد عمله فقط في ذلك اليوم فهو شفيعه الحقيقي وهو صديقه الوفي.

•الآية السادسة: قوله تعالى في سورة السجدة ٧٠ " مالكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون" فإن لفظ شفيع نكرة في سياق النفي فتنفي وجود أي شفيع يوم القيامة من دون الله مطلقا ولو كان نبيا مرسلا،

•الآية السابعة: قوله تعالى في سورة الزمر ٤٤ " قل لله الشفاعة جميعا له ملك السموات والأرض وإليه ترجعون" فإنها صريحة في أن الشفاعة جميعها أي الشفاعة لكل الناس في كل الأجرام لسيت إلا لمن له ملك السماوات والأرض وهو الله وحده. فليس لأحد دونه شفاعة مطلقا لا لرسول ولا لنبي ولا لولي ولا لعالم ولا لشهيد ولا لصديق ولا لصالح ولا لغيرهم مطلقا لأن الشفاعة تتضمن معنى المشاركة مع المشفوع عنده في جلب المنفعة للمشفوع له أو دفع الأذى عنه حيث أن الشفاعة لغة مأخوذة من الشفع ضد الوتر فالمشفوع عنده بعد أن كان فردا في هذا العمل أصبح بانضمام الشفيع إليه في ذلك شفعا وزوجا وأصبح معا شركاء في جلب المنفعة أو دفع الأذى عن المشفوع له وهذا ما لا يرضاه الله تعالى لنفسه ولا تجوزه آيات ككتابه قال تعالى " إنا لله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء".

الآيات القرآنية الصريحة

في أن الله تعالى يعتبر الشفاعة عنده شركا له

ويعد الشفيع شريكا والمستشفع بغيره تعالى مشركا به

مع بيان معنى الشفاعة في اللغة، وأنها تتضمن هذا المعنى بعينه

•الآية الأولى: قوله تعالى في سورة يونس ١٨ "ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحان الله عما يشركون" فإن هذه الآية صريحة في أن اعتقاد وجود شفعاء عند الله تعالى هو شرك محض واعتقاد بأن الله تعالى لا يعلم كل ما في السماوات والأرض وأنه يحتاج إلى وسطاء وشفعاء وشركاء يعينونه وينبئونه ويعلمونه بحال المشفوع لهم ويتوسطون لهم في غفران ذنوبهم عنده، وصريحة أيضا في أنه يعتبر الشفعاء شركاء والمستشفعين بهم عنده مشركين لهم به.

•الآية الثانية: قوله تعالى في سورة الأنعام ٩٤ "وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم" فإن هذه الآية تتضمن معنى التبكيت لمن يزعم بأن له شفيعا عند الله تعالى لأنه يكون كمن يزعم أن لله شريكا إذ أن الشفيع شريك للمشفوع عنده.

•الآية الثالثة: قوله تعالى في سورة الزمر: " أم اتخذوا من دون الله شفعاء " فإن هذه الآية تبكيت أيضا لمن يتخذون من دون الله شفعاء مطلقا لأنهم كمن يتخذون من دونه شركاء لأن الشفعاء شركاء للمشفوع عنده كما تقدم.

•الآية الرابعة: قوله تعالى في سورة الروم ١٣ "ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون، ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء" فهذه الآية تفيد جعل الشفعاء من الشركاء وأن المجرمين لا يستفيدون يوم قيام الساعة شيئا من هؤلاء الشفعاء مطلقا. فمن تأمل جيدا في معنى هذه الآيات خصوصا في معنى الآية الأولى يظهر له جليا أن الله تعالى قد اعتبر الشفاعة عنده شركا له وعد الشفعاء شركاء والمستشفعين بغيره تعالى مشركين به.

وبيان ذلك أن من شفع لك عند أحد الحكماء في دفع الأذى عنك أو جلب المنفعة لك فقد أصبح شريكا لهذا الحاكم في ذلك فالحاكم كان واحدا وترا فأصبح بالشفيع في هذا الأمر اثنين وشفعا وأصبح هذا الشفيع وهذا المشفوع عنده شركاء في دفع هذا الأذى أو جلب هذه المنفعة للمشفوع له وأصبح المستشفعون في ذلك مشركين لهذا الشفيع مع الحاكم في قضاء حاجتهم هذه فالشفاعة هي ضم وإشراك الشفيع مع المشفوع عنده في فعل يعود بالمنفعة على المشفوع له وهذا هو عين معنى الشفاعة في اللغة قال في المصباح (شفعت الشيء شفعا من باب نفع، ضممته إلى الفرد وشفعت الركعة جعلتها اثنين ومنه اشتقت الشفعة كغرفه لأن صاحبها يشفع ملكه بها أي يضمها إليه) انتهى.

وقال في مختار الصحاح (الشفع ضد الوتر يقال كان وترا فشفعه) انتهى.

وقال في القاموس الشفع: خلاف الوتر وهو الزوج) وقوله تعالى (من يشفع شفاعة حسنة) أي من يزد عملا إلى عمل انتهى.

وقال تعالى في سورة الفجر" والشفع والوتر" فإنها قابلت الشفع أي الزوج بالوتر أي الفرد. ومن ذلك يعلم أن اللغة تفسر الشفع بضم شيء إلى شيء آخر وإشراكه معه ويعلم أن اللغة تفسر الشفع بضم شيء إلى شيء آخر وإشراكه معه ويعلم أيضا أن القرآن إنما يريد من الشفاعة معنى الضم والإشراك واعتبار الشفعاء شركاء والمستشفعين مشركين.

وحينئذ فهل يجوز لنا أن نجعل لله الحاكم الفرد يوم القيامة شركاء وشفعاء في شيء ما؟ تعالى عن ذلك علوا كبيرا. وإذا كنا نتهم الحاكم البشري بالظلم والمحاباة إذا قبل شفاعة شفيع في حكمه فهل يجوز لنا أ، ننسب ذلك إلى الله تعالى وهو الحكم العدل المستغني عن كل ما سواه والمفتقر إليه كل من عداه أن ذلك مما لا يقبله عقل ولا يرضاه ذو لب وفهم.

وعليه فقد أصبح من الواجب المختم علينا أن نفهم فيما ورد من شفاعة الأنبياء المأذون لهم فيها معنى آخر غير ذلك المعنى المتقدم الذي هو توسطهم يوم القيامة في إسقاط الذنب عن المذنب الذي نفاه الله تعالى على وجه الإطلاق في الآيات السابقة وعده شركا.

ما أفهمه وأراه في معنى الشفاعة الجائزة على الله تعالى

والتي تليق برسله الأكرمين والتي ورد أنها حاصلة بإذنه تعالى

في آيات القرآن الحكيم مع بيان أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو بهذا المعنى

أعظم الشفعاء وإن له الشفاعة العظمى دون غيره من الأنبياء

إن الشفاعة اللائقة بالله تعالى وبرسله والتي إذن الله بها لمن ارتضاه من خلقة هي الشفاعة بمعنى الوساطة في الدنيا بين الخلق والخالق جل وعلا في تبليغ الشرائع الإلهية وهداية الناس إلى الإيمان بالله تعالى وتوحيده وإرشادهم إلى الأعمال الصالحة وإبعادهم عن فعل الذنوب والمعاصي.

وبيان ذلك أن من تسبب لك في الإيمان، وأخرجك من الكفر والعصيان، وحملك على ترك الذنوب والآثام وأرشدك إلى طريقة العزة والسيادة، وهداك إلى سبيل النجاة والسعادة، وأخذ بيدك إلى عمل الخيراتـ والمبرات، وتنكب بك عن فعل القبائح والسيئات، ونظفك من أدران الفسوق والخطايا، وألبسك لباس الطاعة لرب البرايا، فقد شفع لك عنده تعالى وتوسط لك في دخول الجنة وإبعادك عن النار.

وأي شفاعة أحسن من هذه الشفاعة وأي وساطة أكبر من هذه الوساطة فهذه هي الشفاعة التي تليق بالرسل ويليق بالله أ، يأذن لهم بها أي يرسل أنبياءه لأجلها إذ أنه يوجد فرق عظيم جدا بين التوسط في إبعاد الخلق عن الذنوب والمعاصي وعدم فعلها وبين التوسط في عدم مجازاتهم عليها بعد فعلها. فالأول يعودهم على تركها والثاني يجسرهم على فعلها والأول يليق بالله أن يأذن به لرسله والثاني لا يليق أن يأذن به لأحد من خلقه ولا يناسب أن يتداخل فيه أحد مطلقا إذ كيف يليق بكبار الخلق وعظمائهم كالأنبياء أن يتداخلوا مع الله تعالى في شؤونه حمله على غفران ذنب زيد دون عمرو وهو أعلم بقلوبهما منهم وهم أعلم الناس بعظمته تعالى وأشدهم مخافة منه. إن هذا من العقل ومن اللياقة بمكان سحيق. فالله تعالى وحدة هو الذي يغفر لمن يشاء متى رآه مستحقا للغفران بحسن أعماله بدون توسط أحد ما ولا شفاعة مخلوق مطلقا.

وحينئذ فالرسل عليهم الصلاة والسلام لا يصح أن يكونوا يوم القيامة شفعاء ووسطاء في إسقاط الذنوب عن المذنبين وفي رفع العقاب عن المجرمين وإنما هم شفعاء ووسطاء في إيمان الناس بالله تعالى وفي هدايتهم في الدنيا وفي حملهم على فعل الخيرات والمبرات فيها وفي إبعادهم عن الإجرام والسيئات المؤدي إلى البعد عن النار ودخول الجنة يوم القيامة.

نعم إن الكفر والذنوب والمعاصي التي كان قد عملها الشخص قبل إيمانه وقبل دخوله في الدين فإنه لا يؤاخذ عليها ولا يعاقب بها بل تسقط عنه بمجرد إيمانه ودخوله في الدين الذي دعى إليه كما يشير إليه الحديث الشريف بقوله (الإسلام يجب ما قبله) أي يقطع ويسقط ما قبله من الذنوب لأنه بإيمانه ودخوله في الدين الجديد قد ولد ولادة جديدة روحانية وأصبح كأنه شخص آخر، ويكون الرسول الذي هداه إلى هذا الإيمان وأدخله في هذا الدين قد شفع له في ذنوبه التي كانت قبل الإيمان وفداه منها بواسطة هدايته إلى هذا الإيمان وذلك حاصل في الدنيا أيضا بواسطة وشفاعة الرسل. وبالجملة فإن هذا المعنى الذي قلنا أنه حصل في الدنيا هو المعنى المراد من الشفاعة في الإسلام كما أنه هو بنفسه المعنى المراد من الفداء في النصرانية كما سيأتي تفصيله وتوضيحه.

ثم أنه على هذا المعنى يظهر واضحا كون محمد صلى الله عليه وسلم هو أعظم الشفعاء وأن له الشفاعة الكبرى دون غيره من الأنبياء إذ أنه مرسل إلى الناس كافة وأن دينه وشريعته باقية إلى يوم القيامة دون غيره من الأنبياء فكل من آمن به واتبع دينه وعمل بشريعته ووصاياه وتعاليمه من وقت ظهوره إلى يوم القيامة فهو الشفيع له وهو الواسطة في سعادته في الدنيا ودخوله الجنة في الآخرة.

أما غيره من الأنبياء ففداؤهم وشفاعتهم ووساطتهم محدودة بزمن مخصوص وبأمة مخصوصة وحينئذ فمحمد دون غيره من الأنبياء هو الفادي الأعظم وهو صاحب الشفاعة العظمى والوساطة الكبرى والوسيلة العليا والمقام الأسمى في الآخرة والأولى لأن من يدخلون الجنة بواسطتهم أضعاف أضعاف من يدخلون بواسطة غيره من الأنبياء عليهم جميعا أفضل الصلاة والسلام.

وهذا المعنى ظاهر واضح لا غبار عليه على فهمنا أما على الفهم المشهور فإنه يكون معنى كونه صلى الله عليه وسلم أعظم الشفعاء أنه أعظم الوسطاء في إسقاط ذنوب المذنبين، وعدم معاقبة المجرمين، بل أكبرهم مناصرة للظالمين، حاشاه أن ينسب إليه هذا المعنى السقيم، الذي لا يليق بمقامه العظيم، والذي يأباه له العقل السليم، والذي يعارض نص آيات القرآن الحكيم، قال تعالى" وما للظالمين من أنصار" وقال أيضا "ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدر".

ثم أن هذه الشفاعة بالمعنى الذي قدمناه وإن كانت حاصلة في الدنيا إلا أن أثرها ونتيجتها تكون يوم القيامة بدخول الجنة فلا يتحقق معناها غلا في الآخرة فتكون الشفاعة كما هي حاصلة في الدنيا هي حاصلة في الآخرة أيضا بهذا يندفع ما يتوهم من الاعتراض بأن هذا الفهم يشعر بإنكار الشفاعة يوم القيامة. مع أن هذا الفهم يحقق الشفاعة ويثبتها في الدنيا والآخرة معا. أما في الدنيا فبتعاطي أسبابها ومقدماتها من الرسل من هداية الناس إلى العمل الصالح وإبعادهم عن العمل السيئ.وأما في الآخرة فبحصول أثرها وغايتها التي هي الابتعاد عن النار ودخول الجنة، والشيء إنما يتم بنتيجته وغايته، فالشفاعة لا تتحقق ولا تتم إلا يوم الجزاء ولكن لا تكون في ذلك اليوم برفع الذنب عن المذنب وإسقاطه عن المجرم بعد فعله كما يتوهم كثير من الناس.لأن الشفاعة بهذا المعنى تجسر الناس على فعل الذنوب في الدنيا ما دام وراءها شفاعة الرسل والأنبياء في الآخرة.بل أن هذه الشفاعة بهذا المعنى تنافي صريح قوله تعالى " فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره" وتنافي أيضا

الآيات السبعة عشر المتقدمة التي تنفي الشفاعة بهذا المعنى في الآخرة مطلقا وتعدها شركا وكفرا بل تنافي العقل والمنطق والوجدان ولا تليق بالله تعالى ولا يرسله الكرام كما تقدم تفصيله.

بيان أن حديث (شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)

غير معقول حسب المعنى المشهور في الشفاعة

مع بيان أن له على فهمنا معنى معقولا مقبولا على فرض صحته وعدم وضعه

(أولا) أن ها الحديث لا يكاد يكون له معنى معقول لائق بقائله حسب المعنى المشهور في الشفاعة إذ كأن الرسول الأعظم يقول للناس:

لا تبالوا بفعل الكبائر لأنني شفيع لكم فيها يوم القيامة وسوف أرفع عنكم جزاءها وأسقط عنكم عقابها في ذلك اليوم، بل كأنه يول لهم إذا أردتم أن تكونوا من أهل شفاعتي فكونوا من أهل الكبائر في أمتي، وعليه فهل يليق بالنبي صلى الله عليه وسلم أن يتكلم بذلك ويجسر الناس على فعل الكبائر ويسهلها عليهم ويعدهم بأنه شفيع لهم فيها عند الله يوم القيامة حتى يستهينوا بفعلها ويتجارأوا على ارتكابها اتكالا على شفاعته لهم فيها، أن هذا مما لا يليق أن يصدر مثله على لسان أحد الأنبياء الذين إنما جاءوا لإنذار الناس و تخويفهم من عاقبة الذنوب والمعاصي ليقللوا من فعلها لا ليطمنوهم بالشفاعة لهم فيها حتى يزدادوا جراءة عليها ما داموا يعتقدون أن أمامهم شفيع لهم فيها يوم القيامة.

(ثانيا) أن هذا الحديث قد نص المحققون من المحدثين على أنه حديث موضوع ومكذوب على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه لم يتكلم به قط.

(ثالثا) أنه توجد أحاديث كثيرة تناقض هذا الحديث تما المناقضة حسب المعنى المشهور في الشفاعة. منها ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبنته وفلذة كبده ولعمه العباس رضي الله عنهما في مقام نهيهما أن يتكلا عليه (يا فاطمة بنت محمد ويا بعباس عم محمد أنا لا أغني عنكما من الله شيئا يوم القيامة)

ومنا ما رواه أبو هريرة أنه (ص) قال (لألفين أحدكم يوم القيامة وعلى رقبته شاة لها ثغاء يقول يا رسول الله أغثني فأقول له: لا أملك لك من الله شيئا قد بلغتك) إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة الصريحة في هذا المعنى. وحينئذ فكيف يناقض نفسه ويقول (شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي) مع أن سرقة الشاة التي تعلقت برقبة هذا المستغيث من الكبائر، ثم أن قوله في هذا الحديث جوابا للمستغيث به (قبل بلغتك) يفيد أن التبليغ في الدنيا هو إغاثتك وهي الشفاعة له.

(رابعا) أن هذا الحديث أي حديث شفاعتي إلخ) يعارض تمام المعارضة صريح كثير من آيات القرآن الحكيم كقوله تعالى " قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا" وكقوله تعالى " قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا" وإلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الواردة في هذا المعنى. فإذا كان محمد عليه الصلاة والسلام لا يملك لعمه العباس ولا لإبنته فاطمة بل ولا لنفسه ضرا ولا نفعا فكيف يملك لغيره من أرباب الكبائر نفعا بالشفاعة لهم في كبائرهم يوم القيامة. وكيف أيضا يملك ذلك غيره من الناس الذين هم أقل منه فضلا وكرامة عند الله تعالى.

(خامسا) أن منطوق هذا الحديث حسب المعنى المشهور في الشفاعة يقتضي بأن شفاعته (ص) يوم القيامة إنما تكون لأهل الكبائر دون أهل الصغائر مع أن هذا غير جائز ولا معقول حيث أن أهل الصغائر هم أولى بهذه الشفاعة يوم القيامة من أهل الكبائر لأنهم أخف منهم جرأة على الله تعالى وحينئذ أفلا يكونون مساوين على الأقل لأهل الكبائر في هذه الشفاعة.

فهذه الملاحظات والإشكالات كلها دليل واضح أما على عدم صحة هذا الحديث وكونه موضوعا وأما على عدم صحة مما هو مشهور في معنى الشفاعة وهذا هو الأرجح عندي فعلى فرض صحة هذا الحديث وعدم وضعه لا يكون له معنى معقول مقبول لائق بقائله إلا على حسب فهمنا المتقدم في معنى الشفاعة إذ أن معناه يكون حينئذ أن شفاعته وتوسطه في الهداية والإرشاد في

الدنيا إنما تكون لأهل الكبائر من أمته دون غيرهم وهذا أمر حقيقي واقعي لأن أهل الكبائر هم الذين يحتاجون حقيقة للهداية والاستقامة وإلى العناية بالوعظ والإرشاد بل هم المقصودون أولا وبالذات من إرسال الرسل ومن التوسط في هدايتهم وإرشادهم وفي قمع شرورهم ومفاسدهم وفي دفع أضرارهم ومظالمهم لأن الكبائر هي التي تضر بالأفراد والأمم وتفسد نظام العالم لأن أهلها ومرتكبيها هم الذين يعكرون صفو الراحة العمومية ويزعزعون الأمن العام في الأمة بسلبهم الأنفس والأموال وهتكهم الأعراض وارتكابهم الفظائع والجنايات والإجرام وبالظلم والعصب والفساد في الأرض، وبالتعي والخداع والغش وبترك ما يجب عليهم وما هم مكلفون به لمصلحتهم الشخصية ومصلحة الهيئة الاجتماعية إلى غير ذلك من أنوا الكبائر الكثيرة التي تخل اخلالا بمصالح الأمة الدنيوية والدينية.

أما الصغائر فبالنظر لتفاهتها في ذاتها وعدم إمكان التحرز منها ولقلة ضررها وعدم تأثيرها تأثيرا كبيرا في الأمور الدنيوية والدينية كما أشار إلى ذلك قوله تعالى "الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإلا اللمم" فإن الرسل قد لا يهتمون بها إلا في الدرجة الثانية وبالتبع سدا لذريعة الكبائر وتكميلا للأخلاق وتنزيها للنفس عن كل وصمة، فأهل الكبائر هم المقصودون حقيقة وبالذات من إرسال الرسل ومن وساطتهم وشفاعتهم لهم بهدايتهم إلى الصراط المستقيم وتقويم اعوجاجهم إلى الاستواء والاعتدال، وهذا لا ينافي أن الرسل يلزمهم أيضا أن يعالجوا الصغائر بل والمكروهات وغيرها وإن لم تكن هذه الأشياء هي السبب والداعي الحقيقي من إرسالهم ووساطتهم وشفاعتهم.

مثال ذلك أن السلطان إذا علم أن إحدى البلاد التي تحت تصرفه قد حصل فيها فساد عظيم أو ثورة كبيرة فإنه يرى من اللازم الضروري أن يرسل لها حملة تهددها ومؤدبا يؤدبها ومصلحا يقوم اعوجاجها ورسولا يسلك بها الصراط السوي ولكن إذا علم أن الذي حصل فيها إنما هو فساد عادي أو ثورة صغيرة فإنه لا يرسل لها حملة ولا مؤدبا ولا مصلحا ولا رسولا لعلمه أن ذلك مما لا ستغني الناس عنه ولا يمكن التحرز منه وأنه لا تأثير له على الأفراد ولا على المجتمع لتفاهته في ذاته وعدم أهميته في نفسه، ولكن هذا المؤدب والرسول متى أرسل لمنع المفاسد الكبيرة فإنه لا يرى له مندوحة من أن يمنع المفاسد الصغيرة، ويقمع الثورات الضئيلة سدا لذريعة الفساد وغلقا لأبواب الثورات وإن لم تكن هذه هي السبب الحقيقي في مجيئه إلى هذا البلد وإرساله إليها من طرف السلطان.

فمن هذا المثال يظهر لك أن لزوم إرسال الرسل ووساطتهم وشفاعتهم إنما تكون لأهل الكبائر دون أهل الصغائر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم " شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي" فهذا الحديث على فهمنا في معنى الشفاعة ظاهر واضح لا غبار عليه، أما على المعنى المشهور فيها فلا يكون له وجه في تخصص الشفاعة بأهل الكبائر وعدم مؤاخذتهم عليها وغفرانها دون أهل الصغائر بل الواجب العكس بأن تكون الشفاعة لأهل الصغائر لصغر ذنوبهم وقلة جراءتهم دون أهل الكبائر لعظم جرمهم وشدة جراءتهم على الناس وعلى الله تعالى. فأهل الصغائر أ؛ق وأولى من أهل الكبائر بالشفاعة على هذا المعنى المشهور، وحينئذ فاللازم عقلا اعتبار ما قدمناه في معنى الشفاعة وتقديمه على هذا المعنى المشهور، وحينئذ فاللازم عقلا اعتبار ما قدمناه في معنى الشفاعة وتقديمه على هذا المعنى المشهور وإن كان مشهورا لأن اللفظ متى احتمل معنيين أحدهما معقول ومقبول لائق بقائله والآخر عكس ذلك فالواجب تفسيره بالمعنى الأول دون الثاني مهما كان الثاني مشهورا بين الناس.فهنا لفظ شفاعة معناه الوساطة الشاملة للوساطة في عدم المؤاخذة على الذنوب بعد فضلها وللوساطة في عدم الإتيان بها رأسا وعدم ارتكابها أصلا كما نقول، والوساطة كما تكون في الإيجاب تكون في السلب وكما تكون في الفعل تكون في الترك والمعنى الذي نقوله موجود فيهما معا لأنه وساطة في فعل الحسنات والطيبات ووساطة في ترك المعاصي والسيئات بخلاف المعنى المشهور فإنه مختص بالترك أ بعدم المؤاخذة على الذنب. وحينئذ فحمل الشفاعة على المعنى الذي نقوله أولى من وجوه: (أولا) لأنه أشمل من المعنى المشهور (وثانيا) لأنه أنفع للناس وأرفق لمصالحهم (وثالثا) لأنه أليق بحكمة الله تعالى وحكمة رسله (ورابعا) لأنه لا يكون هناك لزوم للتشبث بأن هذا الحديث موضوع حيث أن معناه قد أصبح حينئذ صحيحا واضحا لا غبار عليه متينا قويا لا انتقاد فيه بل أصبح بهذا المعنى من جوامع الكلم التي امتاز بها كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلام غيره.

المراد من الشفاعة في الإسلام ومن الفداء في النصرانية

شيء واحد هو غير ما يفهمه الناس فيهما

قلنا فيما تقدم أن المراد من الشفاعة في الإسلام هي وساطة النبي صلى الله عليه وسلم في الدنيا بين الخلف والخالق في إيمانهم به وفي توحيده وعدم الإشراك به وفي هدايتهم لدينه وشرائعه وفي إرشادهم إلى الأعمال الصالحة الحسنة وإبعادهم عن الأعمال القبيحة السيئة وهذا بالحقيقة هو المراد من الفداء في النصرانية لأن الفداء في اللغة هي الإنقاذ من الشر والإطلاق من الأسر بعوض قال في المصباح ما نصه (فداه من الأسر استنقذه بمال واسم ذلك المال الفدية وهو عوض الأسر ، وفاديته مفاداة وفداء أطلقته وأخذت فديته) انتهى.

والمسيح عليه السلام قد فدى قومه بنفسه وبما تحمله من المشاق والمتاعب حتى الموت في سبيل هدايتهم إلى الله تعالى وإرشادهم إلى صالح الأعمال وفك أسرهم من شهوات النفوس وحينئذ فالمقصود من الشفاعة والفداء شيء واحد هو إنقاذ الناس من سوء العذاب ومن مغبة العقاب ومن شر المآب بما يبذله الأنبياء في الدنيا من النفس والنفيس وبما يتحملونه من المشاق والمتاعب والتحريق والتقتيل في سبيل ذلك. فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد ضحوا بأنفسهم وأرواحهم في سبيل هداية قومهم وإسعادهم ورفع العذاب عنهم وبذلك يكونون قد فدوهم من العذاب وشفعوا لهم من العقاب.

وتحقيق القول في ذلك أن الذنوب والمعاصي والخطايا منها ما هو قبل بعثة الرسول إلى أمته ومنها ما هو بعد ذلك. أما ما كان قبل البعثة فإنها تغفر وتسقط بالإيمان بذلك الرسول حتى الكفر والشرك فيصبح ذلك الرسول في زمانه هو الفادي والمخلص لكل من آمن به وهو الشفيع له في كل ذنبوه وخطاياه وكفره وشركه قبل إيمانه، وذلك لما ورد في الحديث السابق من أن (الإسلام يجب ما قبله) أي يقطع ما قبله ويفصله عن صاحبه كأنه لم يفعله، ولما ورد أيضا في الإنجيل من أن المسيح هو الفادي والمخلص لكل من آمن به وأن كل من آمن به فقد ولد ولادة جديدة روحية وتخلص من كل ذنوبه وخطاياه حيث يصبح بإيمانه طاهرا مطهرا نقيا من كل ذنب كيوم ولدته أمه. فأنت ترى أن الإسلام والنصرانية متفقان على أن الدخول في دين الله والإيمان بالرسول الذي يرسله الله يكفر جميع الخطايا السابقة ويمحو كل الذنوب الماضية. وحينئذ فقد أصبح كل رسول مخلصا للناس وفاديا لهم ومفكرا لخطاياهم التي كانت قبل إيمانهم وشفيعا لهم فيما وأصبح الفداء في النصرانية والشفاعة في الإسلام على معنى واجد في ذلك.

وأما الذنوب والخطايا التي بعد الإيمان بالرسول فمعنى كون الرسول مخلصا للناس منها وشافعا لهم فيها أنه يمنع الناس من ارتكابها ويبعدهم عن فعلها بإرشاده وهدايته للناس وإخراجهم من الظلمات الجهل والضلال والغواية إلى نور العلم، والصلاح والهداية وليس معنى تخليصهم منها وشفاعته لهم فيها محو تلك الذنوب بعد ارتكابها كما يعتقد المسيحيون في معنى فداء المسيح وكما يعتقد المسلمون في معنى شفاعة محمد عليهما السلام لأن هذا الاعتقاد يجرأ الناس على فعل الذنوب والمعاصي ويفتح بابا واسعا لارتكاب الآثام والخطايا اتكالا على هذا التلخيص والفداء وارتكازا على هذه الشفاعة مع أن كل نبي من الأنبياء ما جاء إلا لأجل أن يجعل الناس يتركون هذه الذنوب ولا يفعلونها ولا يستعملونها لما يترتب على فعلها واستعمالها من المفاسد والمضار واختلال الأمن والنظام ولا يصح أن يكون مجيء الرسل لأجل تخلص الناس وفدائهم والشفاعة لم من الذنوب والمعاصي بعد فعلها وارتكابها لأن ذلك غير معقول إذا فعلت هذه الأمور بعد الإيمان بذلك الرسول وبعد الاعتقاد بوجوب إتباعه في كل ما جاء به عن ربه. ومن جملة ما جاء به عن ربه الجزاء على السيئات والحسنات(من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره).

وهناك فرق كبير بين الذنب قبل الإيمان بالرسول والذنب بعد الإيمان به لأن ذاك كان قبل العهد والميثاق الذي أخذه على نفسه بإيمانه وهذا بعد قبول ذلك العهد المتضمن لترك الذنوب وبعد التزام هذا الميثاق الذي يمنع من فعلها ولذلك قال تعالى: (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) أي ليكون الإيمان به بمثابة اتفاق والتزام ورضا بكل ما جاء به وكل ما أمر ونهى عنه وشرعه الشرع كالقانون إنما يشمل ما بعده لا ما قبله.وعلى كل فإن فداء عيسى وشفاعة محمد عليهما السلام إنما هما على معنى واحد في كل ما تقدم.

والدليل من الإنجيل على أن المراد من الفداء والكفارة والشفاعة شيء واحد قول يوحنا في الإصحاح الثاني من رسالته الأولى (وإن أخطأ أحد فلنا شفيع عند الأب يسوع المسيح البار وهو كفارة لخطايانا ليس لخطايانا فقط بل لخطايا كل العالم).فهذه العبارة

تفيد أن الكفارة على معنى الشفاعة والكفارة عند المسيحيين هي الفداء وحينئذ فقد أصبح الفداء والكفارة والشفاعة على معنى واحد كما قدمنا.

وإذا دققنا النظر في جميع الصفات والأحوال التي يتوهم الناس أنها وردت خاصة بعيسى سواء الفداء أو أحياء الموتى أو غير ذلك فإننا لا ند واحدة منها مخصوصة به لك نجد أن كل نبي متصف بها وإن اختلف التعبير عنها. ولكن بالنظر لكون المسيح عليه السلام قد أهانه قومه كثيرا وحقروه حتى جعلوه ابن زنا فمقابلة لذلك ورد في حقه صراحة صفات عالية لتكون كرد فعل لهذه الإهانة والتحقير وليس هنا ما يدل عل اختصاصه بلك الصفات العالية دون غيره من الرسل.

وبالجملة فإن كل رسول من الرسل هو الخلص الوحيد في زمانه وهو الفادي لأمته وهو الشفيع لهم في ذنوبهم التي قبل إيمانهم والتي بعدها أيضا حسبما وضحناه وفصلناه. وأن معنى الفداء في النصرانية هو كمعنى الشفاعة في الإسلام سواء بسواء.

أما الفداء بالمعنى الذي يفهمه النصارى. والشفاعة بالمعنى الذي يفهمه المسلمون فمع كونهما مخالفين لنصوص كتب الديانتين فهما من أكبر روب الإساءة للمجتمع البشري ومن اضر أنواع الاعتقادات التي يعتقدها الإنسان ويعمل بموجبها وويل ثم ويل للشعب الذي أفراده يأتون المنكرات غير آبهين لمسؤوليتها اتكالا على الفداء أو الشفاعة.

قل لي بربك أي رابطة بين الذنب الذي ينشأ عن مرض القلب الشخصي وعن صدأ ووسخ يغشاه ويذهب بنوره وبين موت المسيح على الصليب؟! ومتى كان الإنسان صحيح الجسم يشرب الدواء لكي يشفى به جسما آخر مريضا؟! وكم من الأنبياء والقديسين ذبحوا وقطعوا أربا فهل كان قتلهم كفارة لذنوب البشر؟ وإذا كان كذلك أفلا يعد ذلك فتحا لباب الإباحية على مصراعيه وتسهيلا لارتكاب المعاصي والإجرام مهما كان نوعها اتكالا على افتداء الأنبياء والقديسين لهم. وإذا قال لنا إخواننا المسيحيون أن الأنبياء والقديسين غير المسيح كانوا مذنبين فلا عبرة لموتهم في الفداء نقول لهم أن يوحنا المعمدان كان معصوما تاما امتلأ بروح القدس في بطن أمه ولم يرتكب ذنبا قط كما في كتبهم وقد عمد أناسا كثرين منهم يسوع المسيح ثم قطع رأسه فإذا كان قتل معصوم من الذنوب يكون كفارة لذنوب البشر فكم بالحري أن يكون قتل يوحنا المعمدان أستاذ المسيح كفارة لآثام بني آدم أيضا. وحينئذ فلا يكون ذلك خاصا بالمسيح ولا يكون مجرد الإيمان بصلب المسيح وقتله مكفرا للذنوب كما يقولون، خصوصا وأنه ورد في رسالة يعقوب الرسول قوله (١٤:٢) (ما المنفعة يا أخوتي أن قال أحد أن له إيمانا ولكن ليس له أعمال هو يقدر الإيمان أن يخلصه) وقوله (١٧:٢)(هكذا الإيمان أيضا أن لم يكن له أعمال ميت في ذاته) وقوله (٢٤:٢) (ترون إذا أنه بالأعمال يتبرر الإنسان لا بالإيمان وحده) وورد أيضا في رسالة بطرس الرسول (١٨:٤) (وإن كان البار بالجهد يخلص فالفاجر والخاطئ أين يظهران) فإن هذه الآيات وغيرها أيضا صريحة في أن مجرد الإيمان والاعتقاد بصلب المسيح وقتله ليس فيه الخلاص والنجاة كما يقول المسيحيون ،إنما الخلاص والفداء والنجاة تكون بالأعمال الصالحة المنبعثة عن الإيمان بالله تعالى وعن اعتقاد الثواب والعقب في الآخرة لا بالفداء بالمعنى الذي يفهمه النصارى حيث أن هذا الفهم في غير محله لمخالفته لنصوص كتبهم ولمناقضته العق أيضا. كما أن فهم المسلمين للشفاعة هو في غير محله أيضا لمخالفته لنصوص القرآن وللعقل أيضا.